مقدمة ملف العدد

د. محمود نسيم *

تشير التعريفات والمفاهيم المتعددة لمسرح الطفل إلى نقطتين؛ الأولى هى الارتباط العضوى بينه وبين المسرح المدرسى، من حيث إنه فى واحدة من تجسداته يتمّ فى إطار المدرسة، ويشكل جزءًا من العملية التربوية، ويمكن وفق هذا أن يقتصرعلى تقديم العروض المسرحية، كما يمكن أن يكون أكثر تكاملاً، فيشمل وضع تصور لمشروع ما وكتابة نص وتحضير عرض وتقديمه بإشراف متخصص أو مخرج مسرحى.

الثانية، هى وجود تداخلات متعددة ومتصلة بين مسرح الطفل واللعب وحرية الخيال والمحاكاة والتعبير؛ فهناك مجموعة من الأبحاث الميدانية والدراسات حول مفهوم اللعب وحب الأطفال للتقليد والتمثيل ضمن إطار الدراما بمعناها العام، فتمت صياغة مفهوم متطور يجمع بين المضمون التعليمى والأشكال الفنية، وهو المفهوم الذى يركز على عمليات التخيل والإبدا ع والحرية فى التعبير لدى الطفل انطلاقاً من أن خشبة المسرح بما هى مجال لخلق عوالم متخيلة سوف تتيح للطفل فرصة متجددة لإدراك الذات وتكوين علاقات متنامية مع العالم الخارجى، فأصبحت فكرة التعليم الذاتى تدخل فى المناهج والدراما، فضلاً عن التعليم التفاعلى، وذلك عن طريق تعامل الأطفال مع الواقع المتخيل وإدراكهم لمكوناته الاجتماعية والمعرفية بهدف اكتساب الخبرات الأولية خاصة أن العرض المسرحى يعتمد على تقنيات وتصورات وإطار بصرى وحركى متعدد يشمل الإضاءة والديكور والموسيقى والمؤثرات البصرية والصوتية وغير ذلك من صور وعلامات.

وهكذا، تلازمت نشأة مسرح الطفل واقترنت بالمؤسسات التربوية، وتأثرت ببنائها الفكرى والتنظيمى، بحيث أصبح النوعان: الطفل والمدرسى، وكأنهما نوع واحد مندمج فى سياق كلى، ويرجع ذلك إلى عاملين: **الأول** هو اعتبار المسرح وسيلة تعليمية وأداة دمج اجتماعى؛ والثانى

* أستاذ بأكاديمية الفنون – مصر.

هو ارتباط مسرح الطفل بما هو تربوى وأخلاقى، وبقدر ما كان ارتباط البدايات والتطورات بالمؤسسات التربوية دافعاً للوجود والفاعلية والانتشار والتأسيس فى بنية منظمة، بقدر ما كان له كذلك بعض الآثار السلبية؛ حيث انعكست على تجربة مسرح الطفل المنهجية السائدة فى التعليم القائمة على الحفظ والتلقين والذاكرة الاستعادية، فصار المسرح هو أيضاً مبنيّاً على المنقولات التراثية والمحفوظات المهيمنة، أى صار فى كثير من عروضه مسرحاً بنكيّاً وليس حوارياً على الرغم من أنه فن التعدد بامتياز، هذا إذا جاز لنا أن نستعير قليلاً لغة "باولو فريرى" وتصوراته عن التعليم البنكى والحوارى.

وبشكل مجمل، يمكن لنا أن نرصد عدداً من النقاط المجملة حول واقع مسرح الطفل مقتصرين على التجربة المصرية باعتبارها نموذجاً دالّاً واختزالياً للإطارات الكلية التى تبدت عليها حركته فى العالم العربى:

١- انعكست طبيعة البدايات على المسارات اللاحقة والمتتابعة لمسرح الطفل وخاصة لحظته الراهنة،حيث نلاحظ طغيان الوظيفة التربوية والقيم الأخلاقية العامة بالمعنى النمطى والتقليدى على الرؤى الكلية للعروض، على نحو يجعلها - أى العروض- خطاباً إنشائيّاً يعيد إنتاج الموروثات والمحفوظات الشائعة ويصبها فى صيغ استهلاكية.

٢- ترسخ العروض فى معظمها ذاكرة استعادية وخطوط عقل محتجز وخيال أسير أكثر من اهتمامها بتكوين عقل نقدى وخيال ابتكارى، خاصة فيما يسمى بالمسرحيات التاريخية؛ حيث تجتر وقائع ومشاهد وتواريخ وتضعها فى سياق مسرحى مبتسر وتصورات فكرية انتقائية.

٣- شيوع الخطابية الصارخة وتهميش جماليات العرض البصرية والحركية، وكأنه - أى العرض- رسالة مجملة وختامية تُلقى من فوق منبر أو تُتلى فى جلسة وعظ دينى وإرشاد أخلاقى؛ مما يخلق مسافة إبعاد بين المتلقى الطفل وصور المسرحية، ويُفضى إلى الانصراف النفسى والعقلى؛ لتمر المسرحية بعد دقائق من انتهائها إلى النسيان.

٤- غلبة الطابع اللغوى على العروض على نحو يجعلها مجرد منصة لحوارات متراسلة بين شخصيات مجردة، ويحولها إلى تكوينات سمعية وليس إلى بناء بصري متتابع، ويختزل المتفرج بالتالى فى السماع وليس المشاهدة، ومع طابعها اللغوى المهيمن، تشيع فى العروض الشخصيات النمطية، أحادية التكوين، الثابتة والمكررة؛ مما يُفقد العرض حيويته وتدفقه الحى، ويحيل الفضاء المسرحى إلى إرسال لغوى، ويختزل الممثل فى حنجرته وقدراته الصوتية.

٥- معظم عروض مسرح الطفل الآن هى عروض يصوغها الكبار سواء كانوا محترفين أو

هواة، ويقتصر حضور الأطفال فقط على المشاهدة والتلقى، دون مشاركة فعلية إلا فى حدود ضيقة، وهذا ابتسار للطبيعة المركبة لهذا النوع المسرحى، واختزال له فى مجرد عرض قائم على رؤية الكبار لعالم الطفل وتصوراتهم المسبقة عن حكاياته وخيالاته.

٦- تتشكل معظم العروض الآن عبر التصور التقليدى، الشائع والمكرس، لتكوين المسرحية: نص جاهز ومخرج وممثلين ومهندس ديكور وفنيين، وغير ذلك ،مع تهميش للصياغات الأخرى لتكوين المسرح، وخاصة بناء العرض عبر ورشة تدريبية، مع أنها الصياغة الأقرب لطبيعة الطفل ومسرحه المتخيل؛ وذلك لأن الورشة فى جوهرها قائمة على الاستكشاف المتدرج لملكات الطفل، واللعب الحر، والخيال الابتكارى، والعمل الجماعى المنظم، مثلها فى ذلك جزئياً مثل الرسوم التلقائية الكاشفة عن المكونات المضمرة والمسكوت عنها لدى الطفل، والجامعة لجزئيات عالمه المتناثرة فى شكل هو بياض الصفحة فى الرسوم وخشبة التمثيل فى المسرح .

تلك كانت نقاطاً مجملة نطرحها لحوار نقدى وفكرى عام، بادئين بهذا الملف النوعى والمتخصص، الذى يشترك فيه أساتذة أكاديميون ونقاد وباحثون يمتلكون الخبرة العملية والاقتدار العلمى معاً، مما جعل الملف تجلياً للعقل النقدى فى تناوله لظواهر مسرح الطفل وإشكالياته وطبيعته النوعية.